الكتاب الجامعي ودوره في تنمية البحث العلمي[1]

1- مقدمة عامة:

بسم الله الرحمن الرحيم

أعتبر هذين اليومين بداية حوار جدي وفعال حول قضايانا الراهنة التي يتخبط فيها البحث العلمي في الجامعات المغربية بصفة عامة وفي جامعة القاضي عياض بصفة خاصة، لا يجب أن ننفعل إلا لما فيه مصلحة العمل العلمي ، ولا ننقد إلا فيما يرجع بالمصلحة على البحث العلمي داخل الكلية ، وعلينا أن نتناصح بخصوص قضايانا المصيرية المشتركة ، فالأزمة إذا كانت عامة ومشتركة لا تحل إلا بالحوار العلمي المشترك ، نعلم جيدا أنه بالبحث العلمي تحل مشاكل كثيرة ، وإذا بالبحث العلمي يتحول إلى موضوعات للتقويم والدرس وهي بادرة طيبة ومقدمة إيجابية ستوصلنا إلى نتائج طيبة ومفيدة .

إن الأعراف التي تجمعنا والتقاليد الجامعية التي توحد فيما بيننا تُحتم علينا أن نكون (أسرة جامعية) واحدة .

لقد اخترت أن أطرح أمامكم موضوع (الكتاب الجامعي)، وأن أثير بعضا من مشاكله معضلاته لنتذاكر ونتحاور بشأن وضعيته العامة داخل الجامعة ، لكن اسمحوا لي أن أقدم بين أيديكم كلمة خفيفة عن ضرورة الكتاب وأهميته.

يأتي الكلام عن الجامعة هنا لأنها تقف في قمة هرم المؤسسات ذات تعليم الكتاب والاهتمام به ، وما زالت الجامعة ينظر إليها نظرة محترمة لأنها مجال للبحث العلمي فيها يولد الكتاب ، ومنها ينطلق ، وفيها يشرح ويفهم ويدرس ويلقن ، نعم قد تجد الكتاب خارج الجامعة ومن تصنيف غير الأستاذ الجامعي لكن ليس بنفس المواصفات، لذلك قلت إن الكلام عن الكتاب الجامعي ليس من نافلة القول، وقد استطردنا في الكلام عن الكتاب بهذه الكيفية رغبة في وضع الكتاب الجامعي في إطاره العام ، الذي لا

---

[1]- نص الكلمة التي تمت المشاركة بها في اليوم الدراسي الذي نظمته كلية الآداب والعلوم الإنسانية بمراكش في موضوع : (البحث العلمي معوقاته وآفاقه) ، ألقي العرض بقاعة الاجتماعات يوم الاربعاء 17 يونيو 2009.

يعرف قيمة الكتاب في الوجود بصفة عامة لا يمكنه أن يعرف قيمة الكتاب الجامعي بصفة خاصة.

لماذا وقع اختيارنا على هذا الموضوع ولم نختر غيره ؟

وقع اختيارنا لهذا الموضوع لأسباب منها :

أ- تخصيص الكتاب الجامعي في الجامعة المغربية بصفة عامة وجامعة القاضي عياض بصفة خاصة بدراسة مستقلة ، لأنني لا أعلم في حدود ما أعلم والله أعلم أن هناك دراسة اهتمت بالكتاب الجامعي في جامعة القاضي عياض ، مع العلم أن الموضوع ضروري وحيوي .

ب- اختيارنا لهذا الموضوع يدل على أن الكتاب الجامعي يعيش أزمة حقيقية ، أزمة متعددة الوجوه والأشكال.

ج- نسعى من خلال هذه الدراسة إلى تقديم موضوع الكتاب الجامعي للمطارحة النظرية ، والمعالجة العلمية الهادئة ، فكل الحاضرين في هذا الملتقى العلمي هم من الأساتذة الباحثين المهتمين بقضايا البحث العلمي ،.

د- منذ انخراط الجامعة في سلك الاصلاح سنة 2003م والكلام عن هذه التجربة لم ينقطع ، فقد أقيمت عدة ندوات ولقاءات وأيام دراسية ومحاضرات كان الكلام فيها عن الكتاب الجامعي غائبا ، ونرجو أن تكون مبادرتنا هذه قد فتحت الباب لمناقشة هذا الموضوع مناقشة علمية ومسؤولة، تتشخص فيها الأزمة بغية معالجتها أو على الأقل التخفيف من آثارها السلبية.

أريد أن أقول لإخواني الأساتذة أن الكلام عن " الكتاب الجامعي" هو الكلام عن كل شيء في البحث العلمي ، الاهتمام بالكتاب الجامعي هو الاهتمام بالبحث العلمي ، فالبحث العلمي يتشكل خارج الكتاب لكن الكتاب يعود ليحويه ، وعلى مر الأيام عاش الكتاب وعاء للبحث العلمي ، وشكل شكلا من أشكال تنظيم المنهاج الدراسي داخل الجامعة ، ومن هذا المنظور فهو يعكس وجوها تمثيلية كثيرة :

- يعكس الوجه الحقيقي للبحث العلمي ، في طبيعته ومجاله وموضوعه ومنهجه .

- يعكس وجه الأستاذ الباحث الذي هو سبب في وجوده ، إذ بتجربته في ميدان البحث العلمي خرج إلى الوجود.

- يعكس وجه الكلية التي ينتسب إليها الأستاذ، والجامعة التي تنتسب إليها الكلية.
- يعكس وجه البلد الذي ينتمي إليه الأستاذ الباحث وخرج منه الكتاب ، وكثيرا ما كنا نسأل ونحن في الشرق أو الغرب عن كُتاب مغاربة ، وعن الجامعات التي يدرسون فيها وعن التخصصات والمجالات التي يشتغلون بها ، وذلك كله سببه المباشر هو الكتاب.

2- الوضع العام للكتاب الجامعي:

لا بد من النطق بحقيقة علمية وهي أن الكتاب الجامعي تأخر الكلام عليه بغية تشخيص مشاكله وأزماته مع العلم أنه مر على جامعة القاضي عياض قرابة ثلاثين سنة منذ تأسيسها ، وأعتقد أن هذه الظاهرة وُجدت على مدى سنوات طويلة من تاريخ المغرب ، يصور أستاذنا محمد عبد الهادي المنوني رحمه الله هذه الغفلة التي حصلت في تاريخ المغرب فيقول : (ولكن عذري في هذا الاختصار هو تغافل التاريخ المغربي عن هذه الناحية وإهماله لها اهمالا مشينا ، فإن الباحث مهما حاول تفصيل تلك الإشارات وتبيين تلك التلويحات يجد المؤرخين المغاربة صامتين ساكتين عن هذا الموضوع ، لا يعنون به إلا في عبارات قصيرة وكلمات مقتضبات)[2]

إذن لا مجال للتساؤل عن سبب الغفلة عن الاهتمام بالكتاب الجامعي والكلام عليه ، فقد بين الأستاذ المنوني أن القضية لها جذور في التاريخ، وما نعيشه اليوم هو شبيه بوضع الكتاب بالأمس ، ولعل الدراسة لتي نحن بصدد تقديمها كفيلة بأن تكشف عن عمق الأزمة التي يعاني منها هذا الكائن المسمى ب " الكتاب الجامعي".

حين نحاول القيام بدراسة علمية وجادة تعترضنا مشاكل عدة منها:

ا- تنوع الكتاب الجامعي من جهة تباين الاختصاصات مما يستدعي أن يقوم أهل كل تخصص بمعالجة المشاكل التي تعترض سبيل هذا النوع من الكتب الجامعية.

ب- لا توجد احصاءات علمية دقيقة تخص الكتاب الجامعي بصفة عامة والكتاب الجامعي الذي يخص جامعة القاضي عياض بصفة خاصة ، وقد قدم السيد نائب العميد الأستاذ عبد الله كوش رقما ذكر أنه غير دقيق وهو

[2]- في كتابه (دور الكتب في ماضي المغرب) ص 12.

مجرد إحصاء خفيف أن عدد إصدارات السادة الأساتذة بكلية الآداب يصل إلى حوالي مائة واثنين كتابا ، هذه الاصدارات هي من جهود الأساتذة الشخصية ومن اعتماداتهم الذاتية .

ج- لا توجد دراسات علمية مواكبة لطبيعة الكتاب الجامعي ، وصورته ومحتوياته ، ثم المشاكل التي تعترضه، إذ المطلوب على الأقل التركيز على عينات من التخصصات الموجودة في الجامعة يتم الاسئناس بها في هذا الغرض.

أمام غياب هذه المعطيات فإن القيام بدراسة علمية دقيقة وشاملة لمسيرة الكتاب الجامعي منذ نشأة جامعة القاضي عياض إلى اليوم تصبح متعذرة ما لم تتوفر إرادة جامعية قوية تثنى بتضافر الجهود لتحقيق ذلك ، أعني بذلك الجهد الإداري وجهد الأستاذ الباحث ، ومع ذلك فإن ما لا يدرك كله لا يترك جله أو بعضه فقد عولت في هذا البحث على جهدي الفردي ، مستعينا بتجربتي المتواضعة في تأليف الكتاب الجامعي وطبعه وتلقينه ونشره ، أستطيع أن أقول إنها مغامرة محفوفة بمخاطر شتى ، فيها ما هو مؤلم وما سار ، ما هو محزن وما هو مفرح ، وهو أمر لا يحس به إلا من كابد مشقة التأليف والنشر .

ماذا يعني الكتاب بالنسبة للجامعة ؟ ما موقفها منه ؟ وما هي أشكال الدعم التي توليها إليه ؟ كم عدد المحاضرات والأيام الدراسية والندوات الدولية والوطنية التي توليها له ؟ كم عدد الإصدارات من هذا النوع من كل تخصص ؟ هل نملك إحصاء دقيقا عن ذلك ؟ هل الكتاب استوفى أغراضه ولم تعد الجامعة في حاجة إليه ، كيف ذلك وما هو البديل ؟ أم أننا ما زلنا نبحث عنه؟ ما هي مواصفات الكتاب الجامعي ؟ وبأية حلة نريده؟ الخ تساؤلات كثيرة تدفعنا للكلام في هذا الموضوع إن لم ننجح في معالجته فعلى الأقل ننبه عليه ونثير بعض إشكالاته، ذلك أن الكلام في هذا الموضوع أصبح مفترضا وسط إكراهات وعوائق كثيرة .

3- مواصفات الكتاب الجامعي

نجيب في هذه الفقرة على بعض الأسئلة التي تقدمنا بها بين يدي الموضوع والمتعلقة ب " مواصفات الكتاب الجامعي".

تختلف المواصفات بين أستاذ وآخر ، كل واحد يعطي وصفا معينا للكتاب الجامعي ، وقد أبانت تدخلات السادة الأساتذة في التعليق على

العرض عن هذا الاختلاف والتباين في الوصف، منهم من يرى أن الكتاب الجامعي هو الذي يصنفه الأستاذ الجامعي داخل الجامعة، ومنهم من يضيف حتى إصداراته خارجها ، ومنهم من يأخذ التجربة الفرنسية أو الألمانية أو الأمريكية أو دولة أخرى من الدول الأوربية أو الدول العربية الشرقية ، ومنهم من يقول إن الكتاب الجامعي هو الذي يُعنى بمداخل العلوم فقط إلى غير ذلك من المقترحات ...

والواقع أنه في غياب وضع خطة للكتاب الجامعي ، مع صورة دقيقة تنبع من إرادة الجامعة في وضع المواصفات السليمة للكتاب الجامعي تبقى كل المقترحات سليمة وبناءة، وفي نظري ، وانطلاقا من التجربة المتواضعة نرى أن للكتاب الجامعي مواصفات ، منها:

1- أنه مجموعة من الدروس والأمالي توفرت للأستاذ مع مر السنين في تدريس مادة معينة .

2- أو مجموعة من المقالات والأبحاث والعروض شارك بها في ملتقيات محلية ووطنية ودولية .

3- أوعمل علمي حر قد يكون ترجمة أو دراسة أو تحقيق أو المساهمة في وضع خطة للبحث العلمي.

4- أو بحث علمي قُدم لنيل شهادة جامعية ، روجع في ضوء ملاحظات اللجنة وطور ليصبح كتابا مطبوعا ومتداولا.

5- اشتراك أستاذين أو ثلاثة في وضع دروس ومحاضرات في تخصص واحد ، هذا النوع من الكتاب الجامعي موجود في الشرق لكننا لم نعهده في جامعتنا.

أما الطباعة والتوزيع فعلى الجامعة أن تتولى مهمة الكتاب الجامعي من حيث الطباعة والنشر حتى تريح الأستاذ من هذه التبعات الصعبة التي إن تولاها الأستاذ تحت ضغط الضرورة ضيع فيها وقتا طويلا يمكن أن يستثمره في البحث العلمي ، الطباعة والنشر والتوزيع يمكن أن يقوم بها كل واحد لكن عملية البحث العلمي لا يقوم بها إلا الأستاذ الباحث ، وهي مهمة لا ينوب عنه فيها أحد.

ومما يلاحظ ويشاع أن البحوث الجامعية التي قدمت لنيل الشواهد الجامعية لا يمكن أن تدخل ضمن الكتاب الجامعي ، والسؤال المطروح : ما الفرق بين البحث الجامعي والكتاب الجامعي ؟ لماذا نصف البحث

بالجامعي فبل أن يطبع وإذا طبع سحبنا منه الصفة الجامعية ؟ ثم ماذا نقول عن الرسائل التي تقوم بعض الكليات ككلية الآداب بالرباط مثلا بطباعتها، فتسعرها وتبيعها أليست من نوع الكتاب الجامعي ؟

أعتقد أننا لم نفرق بين الكتاب الجامعي المقرر على الطلاب بالجامعة والكتاب الجامعي الذي لا يقرر ، فالنوع الأول لا ينفي عن النوع الثاني صفة كونه جامعيا.

إلى جانب ما مضى فإن الكتاب الجامعي يتطلب ما يلي :

1- الخبرة العالية التي ترجع إلى تجربة الأستاذ الباحث في ميدان البحث العلمي ، وميدان التلقين والتدريس.

2- التوفر على الجهد الذهني والملكة المعرفية ، فالكتاب الجامعي ليس كومة من الأوراق تؤخذ من هنا وهناك يوضع عليها اسم أستاذ يدعى باحثا .

3- التوفر على الإمكانيات المادية لطباعة الكتاب وتوزيعه فعملية الطباعة والنشر والتوزيع هي ثقافة أخرى غير ثقافة البحث العلمي ، والأساتذة من هذا المعيار وان اشتركوا في صفة أستاذ جامعي باحث فهذا لقب إداري لا يعني شيئا ما لم يبرهن الأستاذ على خصلة البحث ، فقد يكون الأستاذ جامعيا وذي صفة الباحث لكنه لا يقدم للبحث العلمي شيئا ، ثم إن المجموعة الباحثة التي تظهر عليها صفة البحث العلمي، كثير منهم يتوجس خيفة من عملية الطباعة والنشر والتوزيع فإذا خضع الأستاذ لتجربة مرّة في هذا الميدان فإنه لا يعاود الكرة ثانية، ثم إن غيرة الأستاذ على ذاته وسمعته وكرامته تنآ به أن يقف متسولا أمام المكاتب الإدارية بسبب تأخر الجواب في قضية الدعم ، وقد ينتظر وقتا طويلا ولا يتلقى دعما ، أو أمام المطابع والمحلات التجارية التي تعنى بطبع الكتاب وتوزيعه بنسب عالية جدا....

وإذا ما أرسله للطباعة في دور النشر خرج المغرب ، لا يطبع وقد يجده في جوف عمل آخر ، وظاهرة السرقات العلمية قد انتشرت وعمت بأشكال متنوعة .

4- أهداف الكتاب الجامعي :

يستمد الكتاب الجامعي مشروعية وجوده من الجامعة ، ومثلما أن الجامعة في حاجة إليه فهو في حاجة إليها أيضا ،وإن كنا نتصور وجود جامعة من دون كتاب فلا يمكن أن نتصور وجود كتاب جامعي من دون جامعة ، وإذا كانت الجامعة قد تأسست لتحقيق أهداف معينة فعلى الكتاب أن يعكس ذات الأهداف ويصب في نفس المقاصد ، ولا معنى لفصل أهداف الجامعة عن أهداف الكتاب، والسبب في ذلك أن محرره أستاذ جامعي منخرط ومنظر ومساهم في تحقيق رسالة الجامعة ، هذه الرسالة المتمثلة في دعامة التعليم والتكوين والتربية والبحث العلمي وخدمة المجتمع والتفتح على المحيطين الوطني والدولي والمساهمة في التنمية الشاملة.

جاء في بعض العروض أن التنمية تقاس بعدة عوامل منها "تطويل العمر والزيادة في عمر المواطنين) " ، واسمحوا لي أن أمسك بهذا التعريف لأن الكتاب – من وجهة نظري – يضيف إلى صاحبه أولا وإلى المجتمع والحضارة التي ينتمي إليها رصيدا آخر من الزمن أطول بكثير من عمر الحياة المحدود ، وعندنا في الأثر الصحيح : (إذا مات ابن آدم انقطع عنه عمله من الدنيا إلا من ثلاث : ولد صالح أو صدقة جارية أو علم ينتفع به) هذا معطى جزئي للتنمية ولا مانع من أن يساهم في التنمية بكل أبعادها.

إن للكتاب خاصية عجيبة لا توجد في غيره ، وهي الحصانة القوية التي يمتلكها عبر العصور ، من أساء إليه بأي نوع من أنواع الإساءة لم يفلح وقوبل عمله بالنقد والاستهجان ولو مر على العملية ألف عام ، أما القضاء عليه فمستحيل تحقيقه ، وقد حاول التتار في هجومهم على الحضارة العربية في بلاد الرافدين تحقيق ذلك حين ملئوا دجلة والفرات بالكتب ومروا عليها عابرين ، وكم أحرقوا وأتلفوا لكنهم لم يتمكنوا من تحقيق ما سعوا إليه وهو القضاء النهائي على الحضارة الإسلامية بإتلاف مدخراتها ، ثم عادت تلك الكتب التي رغبوا في إتلافها إلى الظهور ثانية.

وخاصية أخرى هي خروجه من صلب النفس البشرية ، وترائب الروح الباطنية ، وعبر التاريخ حُفظ بعاملين : الأول كتابته في السطور ، والثانية حفظه في الصدور ، ولا أريد أن أستطرد في ذكر من كان يحفظ كتابه عن ظهر قلب ، وقد تعددت أجزاؤه ، وهم كثر جدا أولئك الذين يطلق عليهم نعت " الحفاظ".

إن دور الكتاب الجامعي داخل الجامعة هو خدمة المعرفة الأكاديمية بكل أبعادها ، ثم إنه يشكل نواة المكتبة الجامعية ومعلوم أن المكتبة هي الرئة التي تتنفس بها الجامعة بكل مكوناتها ، و يبقى الكتاب الجامعي بداية ونهاية ناطقا باسم الجامعة على الرغم منها ، فهو منها وإليها ، وإذا كان الأمر كذلك فعلى الجامعة أن توليه المكانة التي يستحقها.

5- أهمية الكتاب الجامعي :

سبق لي أن قلت : إن الكتاب تعبير عن الوجود، كل واحد يعبر عن وجوده عن طريق حرفته ، فالبناء يعبر عن وجوده ببناء العمارات و السدود وغير ذلك ، والنجار يعبر عن وجوده بالتفنن في صناعة الخشب ، والحداد في صناعة الحديد والفلاح في هندسة الحقل وزرعه وكذلك المهندس والطبيب وسائر الحرف ، أما الأستاذ الجامعي فيعبر عن وجوده ووجود الجامعة والكلية والمسالك والشعب والبلد بالكتاب، وأرجو أن لا أكون مخطئا إذا قلت بأن الحياة الجامعية كلها تتجه نحو الكتاب، بما فيها مجمل العمليات التعليمية والتكوينية والتربوية نظرية كانت أو تطبيقية ، فالأستاذ يلقن الطالب مبادئ العلوم ثم مواضيع العلوم ثم مناهج البحث عن المعلومة ، مع المعلومة العلمية يكون الطالب قد توجه إلى الكتاب رأسا لمطالعتها فيه ، ومع مناهج البحث يكون قد توجه إلى كيفية استفادتها منه ، ثم يتدرج الطالب إلى إقامة عروض ثم بحث الإجازة ثم المعمقة فالدكتوراه التي تتوج بتقديم بحث علمي أكاديمي تحت إشراف أستاذ موجه ، ويتم فحصه ومناقشته ، وهذا كله مجرد تدريب يأخذ أشكالا عدة كلها تكشف على أن مجمل العمليات تتجه في النهاية صوب " الكتاب " .

تتجلى أهمية الكتاب الجامعي في كونه يحقق ما يلي :

- يسهل على الطلبة الرجوع إلى محاضرات الأستاذ .
- يجعل الأستاذ يتخلى عن الإملاء الذي هو طريقة عقيمة في التلقين لأنها تفوت الشرح والتفاعل وتأخذ وقت الحصة بكاملها .
- يوفر للطالب الجهد في في أخذ الأفكار والمعلومات من المحاضرة الشفوية .
- يأخذ الطالب وقته كافيا في مراجعة الكتاب ليتمكن من مواكبة استفسارات الأستاذ وشروحاته.

- ارتباط الطالب بالكتاب يعني الارتباط باللغة العلمية وبالمنهج العلمي وبالأفكار العلمية والموضوعات السائدة فيه ، ثم إن ارتباطه به هو ارتباط قراءة ومطالعة واستيعاب.
- يعتبر الكتاب وسيلة تواصل فعالة بين ثلاثة أطراف أساسية : بين الماضي والحاضر، نعني بذلك معرفة الماضين وثقافة المحدثين ، وبين الأستاذ والطالب والموضوع من جهة ثانية ، وبين الجامعة والمحيطين الوطني والدولي من جهة ثالثة.
- يشكل الكتاب الشرارة الأولى لانطلاق البحث العلمي ن ويساعد على انتظام العملية التكوينية والتربوية والتعليمية داخل الجامعة.
- يساعد الأستاذ الباحث على تطوير معارفه والارتقاء بأسلوبه .
- صيانة التجربة العلمية للأستاذ ، فهو يصون فيه أفكاره، ويودع فيه تجربته ، ولا سيما أولئك الذين قطعوا شوطا في التدريس بالجامعة.
- يعوض الكتاب الجامعي الأستاذ إذا سافر أو مرض أو مات، الكتاب سيبقى بعد زوال الأستاذ وحتى الجامعة ، به تنتعش الحياة العلمية في الحال والاستقبال.

6- معضلة الكتاب الجامعي:

نعني ب" المعضلة" الوضع السيئ الذي يعيشه الكتاب الجامعي ، فقد أصبحت كلمة " الكتاب " مكروهة في الوسط الجامعي ، وقوبل الكتاب بالاحتقار والازدراء والتنقيص، ولا يرجع ذلك في نظري إلى المحتويات العلمية التي قد يظن البعض أنها ضعيفة وهزيلة ، ولا إلى الدراهم المعدودات التي يسعر بها لكونها توازي ثمن علبة سجارة من نوع مارلبورو أو وجبة غذاء في مطاعم ماكدونالد ، بل يرجع ذلك إلى عوامل أخرى ثبتت لنا بالاستقراء، وهي :

- علاقة الطالب بالكتاب ليست علاقة سليمة منذ مرحلة التعليم ما قبل الجامعي ، فقد الطلبة القدرة على المطالعة والقراءة، ويصبح ثقيلا عليه أن يرتبط بالكتاب ، وفي سنواتنا الأولى في التدريس كانوا يطالبوننا بحفظ ثلث المقرر أو نصفه ولم يكن يوجد لدينا في ذلك الوقت كتاب ، وأجزم بكل تأكيد أن نسبة كبيرة من الطلبة الأوائل – وأعني طلاب الإجازة القديمة- منهم من لم يطالع كتابا كاملا طيلة أربع سنوات من تسجيله بالكلية.

- عدم وضع الأستاذ الجامعي في إطاره المشروع والطبيعي ، فلديه صورة عن الأستاذ منذ المراحل الأولى للتعليم يحاول أن يسقطها عن الأستاذ الجامعي الباحث ، ليس في هذا تنقيص بالأستاذ غير الجامعي كلا ، ولكنه تمييز يرجع إلى أن الأستاذ غير الجامعي يعتمد على المقرر الوزاري ، والأستاذ في الجامعة يعتمد الكتاب الجامعي الذي هو من تأليفه وتصنيفه ، والطالب الذي دخل الجامعة بعقلية تلميذ لا يميز بين الأمرين.
- ميل الطلبة إلى المختصرات والملخصات ، وقد وفرتها لهم المحلات التجارية المتواجدة بالقرب من الكلية ، وقد تخصصت في تصوير الدروس والنقط الملتقطة من محاضرات الأساتذة ، بما في ذلك الإغارة على كتب الأساتذة وتصويرها وبيعها للطلاب بما لا يقره شرع ولا قانون ، والطلبة يقبلون على هذه المحلات إقبالا كبيرا .
- هذه المحلات هي محلات بيع المصورات ، فهي تجارية بالدرجة الأولى ليست تعليمية ولا تكوينية ولا تربوية ، وهي تضمن النجاح بهذه الكيفية لبعض الطلبة لكن بنسبة كبيرة من الأمية.
- شيوع ظاهرة الغش في الامتحانات، وقد مس الغش الكتاب الجامعي أيضا ، وأعتقد أن ظاهرة الغش في الامتحانات تعددت أشكالها وتنوعت صورها ، مما يستدعي التوقف عندها وإفرادها بدراسة مستقلة.
- أمام هذه الوضعية المزرية يعمد الأساتذة الى استعمال اسلوب الترغيب والترهيب لحماية كتبهم من هذا النوع من القرصنة ،غير أن هذه الأساليب في كثير من الأحيان تقرأ بقراءات مغلوطة.
- الاضطرابات الحاصلة في التعليم ، وارتفاع دعاوى وأساليب الإصلاح أثرت على وضعية الكتاب الجامعي سلبا وإيجابا ، فمن الناحية الإيجابية ساعد الكتاب على تغطية كاملة للبرامج والمقررات ، ففي ظل وضعية تقسيم السنة إلى دورتين : دورة خريفية وأخرى ربيعية جعلت الأساتذة في ارتباك تام أمام استيفاء البرنامج المقرر ، فالدورة تمضي بسرعة ، ومن الوجه الإيجابي أنه حرك أقلام الأساتذة الباحثين للتأليف والنشر ، بحيث أصبحت منشوراتهم العلمية تُعتمد في الترقية السريعة ، ومن الناحية السلبية أن السرعة في الإصدارات أفقدتها المصداقية العلمية من جهة الضبط والتركيز والإحكام.ناهيك أن الاضطراد والاستعجال في تنزيل الإصلاح لم يجعل الكتاب في وضعية مستقرة وثابتة.

- عدم وضوح الصورة المطلوبة للكتاب الجامعي ، فاختلاف تحديد المواصفات يجعل صورة الكتاب الجامعي مهزوزة عند الطلبة.
- التمييز بين أشكال وأنواع الكتاب الجامعي بحيث يحتفى بنوع دون آخر، ويدعم كتاب دون آخر ، وتقام قراءات لأنواع معينة في تخصصات معينة دون أخرى .

إننا نتفهم جيدا أن للطالب الجامعي مشكلة مع الكتاب المقرر ، ونحس جيدا -انطلاقا من التجربة-أن للأستاذ مشكلة مع الكتاب الجامعي أيضا ، الأولى مشعور بها والثانية غير مشعور بها ، الطالب يعيش المشكلة ويعلن عنها والإدارة تساعده ، والأستاذ يعيشها في صمت ، في انزواء وانطواء ، وأعتقد ان حل هذه المشكلة تبدأ من علاقة الأستاذ بالكتاب الجامعي ، ما لم تحل هذه المشكلة لن تحل المشكلة الأخرى.

ومما تجب الإشارة إليه أن الكتاب الجامعي يتأثر بالمحيط الذي يتواجد فيه ، فهو يشبه الجنين من هذا الوجه ، مثلما أن الجنين يتأثر بعالم الرحم ، وبوضع الأم صحيا ونفسيا فإن الكتاب يتأثر هو الآخر بمحيط والدته وهي الجامعة ،و كيفما تكون الجامعة يكون كتابها.

7- نقد نقد الكتاب الجامعي

توجه إلى الكتاب الجامعي بصفة خاصة والبحث العلمي الجامعي بصفة عامة مجموعة من الانتقادات لا نرى صوابها، نوردها في نقط محددة ثم ننجيب عليها بصيغة التوضيح والنقد :

1- هناك انتقادات توجه إلى محتويات الكتاب الجامعي في علاقتها بالواقع ، وهي مغالطة شديدة ، فالعلاقة التي يجب أن ترصد هي علاقة محتويات الكتاب ب "الواقع الجامعي " لا ب " الواقع المجتمعي"، علاقته بالواقع المجتمعي تأتي بالتبع حين تتخصص كتب بدراسة الظواهر الاجتماعية ، أما ما له صلة بالبحث العلمي والبيداغوجي فهذا يهم الجامعة بالأساس ، فالكتاب الذي يبحث في منهجية البحث العلمي ، والفهرسة والتكشيف والتخريج ومنهجية سيبويه أو ابن جني وفلسفة ابن رشد وكانط والقضايا الكلامية عند الغزالي وترجمة عمل روائي الخ ما علاقة كل هذا بالواقع الاجتماعي؟

2- نقد آخر له صلة بالأول لكنه يأتي بصيغة أخرى وهي "عدم تفتح الكتاب الجامعي على المحيط."

صحيح أن من أساسيات الثقافة الأكاديمية الانفتاح على المحيط ،وربط الجسور بين مكونات المجتمع المدني ومؤسساته ، ومن هذه المؤسسات الجامعة ، ذلك ما نص عليه الميثاق ،وهذا إن تم فإنه سيكون في صالح الكتاب الجامعي لأن سوقه الممتاز هو المجتمع المدني ، فالفئة العريضة من المستهلكين هم أفراد المجتمع ، لكن هذا لم يتحقق للأسف ، لأنه بالقدر الذي نتكلم عن مساهمة الجامعة في المحيط الاجتماعي نسائل المجتمع نفسه ماذا قدم للجامعة سوى أنه صدر إليها أفواجا من الطلبة وتخلّى ،طلبة من مختلف الفئات الاجتماعية والانتماءات المذهبية والولاءات الحزبية وتعرف الساحة الجامعية فوضى مُطبقة من المشادات والصراعات والاضطرابات التي تؤثر سلبا على سير العملية التعليمية .

العلاقة بين الجامعة والمجتمع مطبوعة بطابع عدم التواصل ، والدليل أن الجامعة حينما تعيش حمى الاصلاح لا يشاركها المجتمع هذا الهم ، فهمُّها في واد وهمُّ المجتمع في واد آخر.

3- قولهم " إن الجامعة تساهم في تفريخ أفواج من العاطلين"، وهذه الدعوى تقابل بالسؤال الآتي : كيف دخل الطالب إلى الكلية ؟ هل دخل بشهادة وخرج بدونها ؟ هل دخل عالما وتخرج أميا ؟ هل من مهمة الجامعة التوظيف وإيجاد الشغل ؟

الذين يروجون لهذه التهمة لا يعرفون ماهي المهمة المنوطة بالجامعة ، مهمة الجامعة هي البحث العلمي والتربية والتوجيه والتكوين لإيجاد الأطر القادرة على خدمة البلد والمؤهلة لتحمل المسؤولية في المغرب الحديث ، وتتوج مسيرة الطالب في الجامعة بشهادة تؤهله للانخراط في سوق الشغل ، ولم يكن من مهام الجامعة إيجاد الشغل والتوظيف ، تلك وظيفة مؤسسات أخرى .

4- من المؤاخذات أيضا أن الكتاب الجامعي بصيغته الحالية لا يحقق شيئا ذا بال للجامعة ، والجواب أن صورة الكتاب الجامعي غير واضحة المعالم عند الجامعة ، والواقع أنه إذا لم تكن من حسنات الكتاب الجامعي أنه حافظ على المعلومات من الضياع فهذا أكبر عمل يسديه للجامعة ، والوضع الذي تعيشه الجامعة بوجود الكتاب هو أفضل بكثير لو لم يكن الكتاب .

5- يقيس البعض جودة الكتاب بعدد النسخ المطبوعة منه ، وسرعة نفاذها من السوق ، وهذه النظرة نظرة تجارية لا تصلح مقياسا لجودة الكتاب ،

الكتاب الجيد هو الكتاب النافع المزكّى من أهل الاختصاص ، كم من كتاب جيد غير معروف وغير متداول ، وكم من كتاب كتب له الاشتهار والرواج وهو غير نافع أو نفعه قليل، وفي ظل غياب الإشهار السليم الناصح الموجه ، وفي ظل فساد الأذواق وتعدد المشتهيات والميول إلى الزخارف والشكليات واختيار العناوين البراقة غير الدالة يبقى الكتاب على حاله من الضياع والإهمال.

6- كثيرا ما تظهر بعض الممارسات من الإدارة أو من غيرها تحاول أن تمارس عنصر الرقابة على كتاب الأستاذ الجامعي ،وتظهر هذه الممارسات مع شيوع بعض الدعاوى حين تظهر بعض الخروقات غير المسؤولة تحاول أن تسيء إلى توظيف الكتاب الجامعي بطريقة غير علمية وغير تربوية ، رحم الله الأستاذ محمد عبد الهادي المنوني كان يقول في مثل هذه الحالات : (كل الحرف لها محتسب إلا هذه الحرفة) ، ويعني بها حرفة الكتابة والتأليف .

الرقابة هي المحاسبة ، والمحاسبة غير موجودة على البحث العلمي ، نعم هناك قيود وتوجيهات وقوانين معينة لكن أن يقع التدخل في محتويات المحاضرات والدروس والكتابة والنشر هذا أمر غير وارد في الوقت الحاضر ، والرقابة الحقيقية السائدة أو التي يجب أن تسود هي التي يمارسها الأستاذ الباحث على نفسه وعلى إنتاجه ، أو يستعين بمجموعة من الأساتذة المختصين لتقويم عمله من الناحية اللغوية والأسلوبية والمنهجية ،المراقبة المطلوبة هنا هي " المراقبة الذاتية".

7- يحاول البعض أن يقدم علاجا مفاده الاحتذاء بالنموذج الغربي في تكوين الكتاب وفي التعامل معه ، نقول : نعم، الاقتباس والاستفادة من التجارب أمر مطلوب ، لكن لا يجب أن يكون جزئيا ، فالجامعة في الغرب ليست هي الجامعة هنا ، والبنية التحتية هناك ليست هي البنية التحتية هنا، والعلوم هناك ليست هي العلوم هنا ، إن أي نجاح للاقتباس يجب أن يراعي الفوارق والخصوصيات.

إن وضعية الكتاب الجامعي في الجامعات المغربية وفي جامعة القاضي عياض بصفة خاصة لا يجب أن يُقاس بتجربة الكتاب الجامعي في الغرب ولا بوضعه في بعض البلدان المشرقية ، فمن دون شك أن الكتاب في هذه البلدان دخل في مسلسل الاصلاحات المتتالية للتعليم الجامعي ، وشملته

مشاريع التنمية العلمية والمعرفية والاقتصادية والحضارية ...وإذا كانت بعض البلدان تتحدث عن مرحلة ما بعد الكتاب والبعض يتحدث عن إعادة النظر في الوضع السائد للكتاب فنحن في جامعتنا لم نصل بعد إلى مرحلة الإقلاع بالكتاب الجامعي ، الكتاب الجامعي عندنا ولد ولم يسم بعد ، وليست لدينا مواصفات شكلية ومضمونية متفق عليها يمكن من خلالها تقويم وجوده وتقويم مسيرته.

8- الكلام عن مواصفات الكتاب الجامعي يجب أن يكون مسبوقا أو ملحوقا بمواصفات الأستاذ الباحث ، ومواصفات الإدارة الجامعية التي تساعد على البحث العلمي وتدعمه ، ومواصفات الطالب الجامعي ومواصفات الفضاء الجامعي ، أعتقد أنه بدون تحديد مواصفات هذه الأطراف يبقى تحديد مواصفات الكتاب الجامعي ناقصا .

9- مقترحات وتوصيات

ما زلت أحس أن أي كتاب أصدرته كأني رزقت مولودا جديدا ، أو كأني ولدت من جديد ، فأسعد بالإصدار وأنشط له ، وتغمرني لذة خاصة ، اللذة بالمعنى التي حددها الأستاذ عبد الجليل هنوش عميد الكلية في مفتتح كلمته لهذا اليوم الدراسي.

إن أهم الثورات العلمية والكشوفات والتطورات يقف الكتاب وراءها ، الحياة العلمية تبدأ به والتخلف والجهل يعم الأمة بسبب غيابه ، فهو ضمان النهضة وعربون التطور .

والكتاب يصنع السمعة العلمية للبلد والجامعة ، وكفى بالبلدان فخرا أن تذكر وتشتهر بمن برز فيها من العلماء وما ظهر فيها من كتب ، والحضارة اليونانية خير دليل.

إذا أدركنا هذا كله تحتم علينا مضاعفة الجهود لصناعة الكتاب والكتاب في مختلف التخصصات العلمية النافعة ، ولن يكون ذلك إلا بتوفر العناصر الآتية التي نذكرها كتوصيات أو كمقترحات ، وهي كالآتي :

1- تأسيس منتدى للحوار الأكاديمي ، نناقش فيه القضايا الجامعية الساخنة ومنها قضية " الكتاب الجامعي".

2- الحاجة ماسة إلى قانون ينظم شؤون الكتاب الجامعي بما يصون كرامة البحث العلمي وحقوق الأستاذ الجامعي ومصالح الطلبة.

3- إقامة ندوات وطنية خاصة بالكتاب الجامعي ، ومعارض محلية وجهوية ووطنية ودولية.
4- تخصيص دعم مشرف للكتاب ، إما بدعم مادي مباشر وغير مشروط أو باقتناء كمية لا بأس بها ، مع عقد اتفاقيات مع وزارة الأوقاف والثقافة والبلديات والجمعات المحلية وكل الجهات التي تعنى بتشجيع الكتاب الجامعي.
5- من مستلزمات البحث العلمي ، ومن ضرورات نجاح الدراسة الجامعية الانفتاح على أوعية العلم ، وفتح الجسور وربط الاتصال بين مختلف التخصصات الجامعية ، وهذه القضية وإن بدأت في مسالك الشعب في بدايتها فإنها انتفت من المسالك التي اقترحتها الوزارة الوصية بحيث عاد الانغلاق وساد التقوقع أغلب المسالك ، وهي قضية ستنعكس بالسلب على العملية التعليمية والتكوينية والتربوية.
6- ليس الكتاب الجامعي مجموعة من المعلومات تجمع ويتم تلقينها بل يتجاوز ذلك إلى تكوين الطالب وتأهيله وصنعه ليكون مفكرا ، باحثا ومبدعا ، ينخرط بفعالية في حركة التقدم والتنمية .
7- بقدر ما يسعى الكتاب الجامعي إلى تقديم معارف للطالب الجامعي بقدر ما يخلق فيه بادرة النقد والمراجعة والحوار .
8- لا يجب أن يقدم الأستاذ الكتاب على أنه غاية النهاية في المعرفة ،أو أنه المرجع الأمثل والمصدر الأوحد، بل الكتاب هو جزء من كل ، وأن اعتماد الطالب عليه لا يعفيه من الاعتماد على غيره .
9- عدم إدخال الطالب في الخلافيات العلمية والميولات المذهبية والولاءات الحزبية .